الصراع الحضاري في روايات عبد الرحمن منيف.

الأستاذة : جنات زراد.

جامعة باجي مختار . عنابة

ملخص البحث

[إن الصراع الحضاري بين الشرق والغرب قضية قديمة قدم الوجود الإنساني على الأرض، وتعتبر من أكثر المسائل إثارة للجدل والحوار والتنظير، تصدّى لها عدد من الباحثين والنقاد والفلاسفة والأدباء والسياسيي والفنانين الذين تناولوها بشكل مستهلك، كل حسب وجهة نظره ومجال اختصاصه، فمنهم من نظر إليها نظرة إيجابية مليئة بالتفاؤل من منطلق أن التطور يقتضي الانفتاح على الآخر، ومنهم من اعتبر أن العلاقة بينهما علاقة عداء مستمر تثير النزاعات والحروب والفتن، وترتكز هذه الرؤية بشكل أساسي على مبدأ التمايز والاختلاف بين الحضارات، ويعد الروائي "عبد الرحمن منيف" من أهم الأدباء الذين تصدوا لهذه هذه القضية حيث شكلت المعادل الموضوعي لمعظم إبداعاته، فهو لم يفرد لهذه القضية عملا واحدا خاصا بل نجد صور العلاقة بين الشرق والغرب تجلت في كتاباته تقريبا بأكملها وطرحها طرحا حادا ودقيقا، وهذا ما سنسعى لتقديمه في هذه الدراسة.]

الكلمات المفاتيح: الرواية، عبد الرحمن منيف، الصراع الحضاري، الكيان العربي، القوى الأجنبية، أنماط، الشرق والغرب، سيطرة واستغلال، رفض متبادل، قبول مجزوء.

Le conflit civilisationnel dans les romans de Abdul Rahman Munif.

Résué : Le conflit civilisationnel entre l'Orient et l'Occident est vieux comme le monde. Il s'agit aussi d'une question qui suscite débat et crée de nombreux courants de pensée

Certains chercheurs, critiques, philosophes, écrivains, hommes politiques et artistes ont différemment abordé le sujet du conflit civilisationnel en fonction de la discipline de chacun. Certains y voient un bien nécessaire qui favorise l'ouverture sur l'Autre pour le progrès de la société. En revanche, un autre courant pense que la rapport Orient-Occident provoque en permanence des conflits et des guerres. Cette seconde vision repose essentiellement sur le principe du conflit entre les civilisations

Abdul Rahman Munif a bien souvent évoqué le conflit entre l'Orient et l'Occident dans son œuvre. Ainsi, la présente étude vise à mettre l'accent sur cette question.

مقدمـــــة:

اتخذ الصراع بين الشرق المتخلف والغرب المتحضر أشكالا مختلفة وأساليب متنوعة، وشمل ميادين متعددة كالميدان الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي. ..وغيرها، وقد استطاع الإبداع الأدبي العربي . والذي يهمنا في هذا المقام . أن يجسّد هذا الصراع المرير بين الحضارتين، لاسيما الرواية باعتبارها "الشكل الأدبي الأكثر دلالة في المجتمع البرجوازي"[1]، فقد خاضت بواكير التأليف في الأدب العربي الحديث في هذه القضية الهامة والخطيرة فمنذ أن كتب رفاعة الطهطاوي كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" سنة 1834، ثم كتب "علي مبارك " " رحلة الشيخ علم الدين " سنة 1882، وكتب بعده " أحمد فارس الشدياق" " الساق على الساق في ما هو الفرياق" سنة 1887، ثم "محمد المويلحي " "حديث عيسى بن هشام"سنة 1905 الذي ألمح إلى هذه القضية الحساسة، تزايد الإقبال الروائي على تصوير هذا الصراع واللقاء بين الشرق والغرب، فكتب "توفيق الحكيم" "عصفور من الشرق "سنة 1938، وكتب "طه حسين " "أديب"، وكتب " يحي حقي " "قنديل أم هاشم" 1944، و"سهيل إدريس" "الحي اللاتيني" سنة 1954، و"الطيب صالح" "موسم الهجرة إلى الشمال "سنة 1966. ...وغيرهم، واستمر النهر المتدفق جاريا في صلب الإبداعات الروائية العربية، ليلحق بالركب بعد ذلك جيل آخر من الرواة المبدعين الذين حاولوا أن يجسّدوا صراع القيم المتناقضة بين الشرق بعاداته الموروثة وقيمه المعروفة والغرب بحضارته الطاغية ومدنيته الصاخبة.

صور اللقاء بين الشرق والغرب في روايات عبد الرحمن منيف:

في سبعينات القرن الماضي خاصة بعد هزيمة حزيران اتّجه لفيف من الأدباء إلى تسليط الضوء على هذه القضية الحسّاسة والمهمة، ويعتبر"عبد الرحمن منيف" من أهم الأدباء الذين عرضوا لهذه القضية بشكل موسع جدا فقد عالجها بدقة وعمق شديدين، فأخذ يكشف النقاب عن الصراع التاريخي الجوهري بين الكيان العربي والقوى الأجنبية الخارجية التي تحيق بهذا الكيان وتذمر له الشر غير مكتفية

بما اقترفته في حقه من جرائم لا ينساها التاريخ ولا تصفح عنها الأجيال، وما سببته له من تعاسة وشقاء، وما مارسته من عدوان ونهب وتحقير وتضليل. كما كانت لمنيف رؤيته الخاصة للحضارة الغربية وعلاقتها بالشرق وضّحها بشكل جلي في رواياته، ولعلّه استقى هذه الرؤية من عمله في المجال السياسي ورحلاته الكثيرة إلى الغرب من أجل الدراسة أو من أجل عمله كخبير في مجال اقتصاديات النفط، حيث مكنته خبرته الطويلة من ملأ الفراغات وسد الفجوات التي تعترض سبيله في عالم الرواية. ويذهب "منيف" إلى أن اللقاء بين الشرق والغرب تولّد عنه " ثلاثة أنماط للعلاقة، العلاقة الأولى علاقة سيطرة واستغلال، والثانية علاقة رفض متبادل، والثالثة علاقة قبول مجزوء"[2]، حيث تتشكل العلاقة الأولى من عقدة الانبهار بالآخر ترافقها عقدة الإحساس بالدونية من قبل الأنا، لينفتح أحدهما على الآخر بمركّبين متضادين، مركب نقص بالنسبة للأنا (الشرق)، ومركب استعلاء بالنسبة للآخر(الغرب)، مما يجعل الثاني ينظر إلى الأول نظرة استعلائية فوقية، ويمثل البغض والعداء الذي يحمله أحدهما إلى الآخر جوهر العلاقة الثانية، وتظهر في العلاقة الأخيرة نظرة إعجاب متبادلة في ما يخص بعض الأمور التي تمس جانب معين من جوانب حياة الإنسان في كل حضارة. وسنحاول فيما يلي أن نعرض الأنماط المختلفة لهذه العلاقة من خلال روايات عبد الرحمن منيف.

1 ـ علاقة السيطرة والاستغلال:

1.1ـ في رواية الأشجار واغتيال مرزوق: تتجلى هذه العلاقة بوضوح في الروايات الأولى لعبد الرحمن منيف خاصة رواية الأشجار واغتيال مرزوق حيث تبرز لنا صور اللقاء الحضاري من خلال العلاقة التي تجمع بين " كاترين " الفتاة المجرية التي حضرت إلى الشرق مع بعثة الآثار الفرنسية التي عمل فيها بطل الرواية "منصور عبد السّلام" مترجما بوصفه أستاذ سابق لمادة التاريخ في الجامعة، بعد أن فصل من منصبه بسبب مواقفه السياسية المعارضة والمناهضة للسلطة، وقد تعرف "منصور عبد السلام" على كاترين في بلجيكا ونشأت بينهما علاقة حب؛ لكنه رفض الارتباط

بها والعودة بها إلى بلاده، ليقينه بأنها لن تتأقلم مع عادات وتقاليد وطبيعة الحياة في المجتمع الشرقي المتخلف والمحافظ، والتي تختلف جملة وتفصيلا عن حياة المجتمعات الغربية المتطورة والمتحررة، فهو يرى أن العلاقة بينه وبينها مستحيلة.

إذ يقول لها " كاترين أيتها الصغيرة المحبوبة، ليس عندي كلمات، ولكن يجب أن تعرفي أننا من عالمين مختلفين، التقينا في نقطة، ولكن كل عالم منا سيواصل رحلته، سيظل يمشي إلى آخر الدنيا، إلى آخر الحياة دون أن نلتقي مرة أخرى"[3]، ويقول لها أيضا:" كاترين نحن عالمان، التقينا بالصدفة وبعد قليل سوف نفترق، إن لقاء مثل هذا لا يمكنه أن يستمر، مهما حاولنا، ولا تتعبي نفسك كثيرا، ليس لأني لا أريدك، ولكن لقاء مثل الذي تحلمين به سيكون قصيرا وفاجعا"[4]. ويقول لها في مقطع آخر:" كاترين. .بلادي كبيرة، تشرق عليها الشمس ولا تغيب، والناس عندنا لايعرفون شيئا غير أن يتناسلوا، إنهم كثيرون..كثيرون جدا، وكل يوم يزدادون، إنهم ينامون ويتناسلون في الليل والنهار....إنهم يبكون كثيرا، يريدون أن يكفروا عن شيء ما، ويضحكون بعصبية، وربما أصبحوا من الحزن مرضى وكذلك من الجوع"[5]، ثم يصف لها عقلية المجتمع العربي الذي يرفل في قيود الأمية والجهل، وطبيعة حياة المرأة الشرقية التي تعاني من الاضطهاد والابتزاز والمقايضة نظير أمور تافهة، فيقول لها: " إذا جاءت لأحدهم رسالة حملها مسيرة يوم ليقرأها له رجل دجال يضع على رأسه لفة وهذا الرجل الذي يترنم بقراءتها يأخذ مقابلا لذلك دجاجة وعشرة أرغفة خبز، وربما تزوج ابنة صاحب الرسالة التي لا يزيد عمرها عن إحدى عشرة سنة وتكون هذه الزوجة العاشرة بعد تسع زوجات مات منهن أربع أو خمسة زوجات أثناء الولادة، والأخريات يجلسن في الزوايا يفركن الأرجل ويسجنّ"[6]، إذن هذا هو الشرق، فضاء الاختلاف، فضاء الفرقة والفجيعة وأرض الشمس المحرقة، أرض الفقر والجوع والحزن والجنون، إنه باختصار فضاء اللقاء المستحيل.

وإذا كان "منيف" في هذه المقاطع يدين الشرق فهو في المقابل ينوّه بالغرب الديمقراطي من خلال دائما شخصية " منصور عبد السلام" الذي كان أحد : السلطة القمعية في المجتمع العربي، إذ يقول "الملوك عندنا يا كاترين لا يشبهون ملوككم أبدا، كل رجل عندنا ملك، والمماليك صغيرة لدرجة أنها متجاورة ومتراصة مثل مراحيض الفنادق، وهؤلاء الملوك يضربون زوجاتهم، يشدون شعورهن ويصرخون في وجوه الأطفال ويجبرونهم أن يناموا جياعا لأنهم قدموا الأكل لضيوف متخمين"[7] لقد قدم منيف صورة عن المجتمع البطركي أو المجتمع الذكوري الفوقي المتسلّط الذي يكون فيه الرجل الشرقي الآمر الناهي في الأسرة إلى درجة الشطط، حيث تعنّف الزوجة ويروّع الأطفال، فهو هنا يعقد مقارنة لا تستقيم بين طبيعة الرجل الشرقي المتخم بالسادية وكيف يتحكم في مملكته الصغرى (البيت) باعتباره صورة مصغرة عن الحكام في المملكة الكبرى (الدولة).

ويمعن "منيف" في وصف أخلاق الرجل الشرقي الذي يصول ويجول في بيته كملك جبّار، لكنه أمام الأقوى منه كالملك أو الحاكم أو من بيده مقاليد السلطة يكون ضعيفا، مهزوزا، مسلوب الإرادة، يعفّر وجهه بالتراب تحت قدميه، خوفا وطمعا من أجل نيل الحظوة لديه، يقول منصور عبد السلام:" أما إذا التقوا بالملوك الذين هم أكبر منهم، فإنهم يجثون على الأرض ويقبلون التراب تحت أرجلهم، ويفعلون أي شيء لأجل ابتسامة صغيرة، والملوك الكبار يسجدون للذين أكبر منهم"[8].

ويصور لنا منيف على لسان "منصور عبد السلام" قسوة الحكام في الشرق، الذين لا تعرف الرأفة والرحمة طريقا إلى قلوبهم، عاثوا في الأرض فسادا، يذبّحون شعوبهم وينكّلون بهم، وينهبون خيراتهم دون أن يرفّ لهم جفن، يستعينون بجند الشيطان في اضطهادهم لرعيتهم، ويصرفون كل ما أوتوا من حيلة ووسيلة من أجل تكميم أفواههم وكبت أنفاسهم وقتل روح التمرد فيهم، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فاستكانة الشعب للظلم والذل وخنوعه المخزي دون أن

يبذل أدنى جهد أو مقاومة من أجل التغيير، دفع بالحكام للاستخفاف بهم وبسط نفوذهم وإحكام سيطرتهم أكثر، فيقول: " كاترين لا تغضبي، فأنا لا أقول سوى الحقيقة، وهذا الملك الذي أتحدث عنه قاسٍ حتى إن الشرر يتطاير من عينيه دائماً، الملك الذي يقتل مئات من الناس، يقطع أيديهم وأرجلهم ورؤوسهم، ويجلدهم في الميدان الكبير، ويسرق كل قمحة تنبت في أي شبر من الأرض ويلقي للناس بالفتات، والناس يهزون رؤوسهم شكرا واعترافا بالجميل"(9).

كل نقاط التجاذب بين بطل الرواية "منصور عبد السلام" ومجتمعه الشرقي المغضوب عليه قد تلاشت في فضاء الاختلاف والنفور المطلق، وكأنه هو الآخر يرفض الارتباط بهذا المجتمع المتخلف، المجتمع الذي يسكت على حقوقه هو مجتمع ضلالي والشعب الذي يلهث وراء ما له كالكلب الجائع لا يمكن بأي حال من الأحوال عدّه مجتمع حضاري على الإطلاق.

لقد عمد المبدع من خلال أبطاله إلى فضح وتعرية المجتمع الشرقي ونعته بالمتخلف لأنه يسعى وراء التقليد فقط، يرضى دوما بالذل والمهانة ويحني رأسه خضوعا أمام الحكام الجبابرة الطغاة، فالبعد الذي وضعه منصور عبد السلام بين الغرب والشرق كالبعد الذي يفصل السماء عن الأرض، شتان بين مجتمع ينظر إلى أبعد نقطة ينطلق منها إلى التقدم وبين مجتمع ينظر إلى الخلف، إلى الحضارات التي "بنيت على جماجم الشعوب" على حد تعبير "منصور عبد السّلام" كالحضارة البابلية التي حضرت بعثة الآثار الفرنسية من أجل التنقيب عن الألواح المسمارية وكشف مظاهر تلك الحضارة البائدة، إذ تمثل تاريخ أفراد لا تاريخ مجتمعات فالوصول إلى حقيقة هذا التاريخ لا يمكنها أن تغير في الحقيقة الراهنة للإنسان، فهاهو يسأل رئيس البعثة بنوع من السخرية الممزوجة بكثير من المرارة اللاذعة الغارقة في التشاؤم فيقول : "وأنت يا مسيو "دونال"، هل وصلت إلى الموقع؟ هل حضرت كل شيء لاستقبال الرجال الذين سيبحثون عن ألواح الطين؟ وإذا وجدناها يا مسيو "دونال"، ماذا سنفعل بها؟ لنعرف التاريخ القديم بشكل أفضل؟ وإذا عرفناه

هل يتغير شيء في حياة الناس الذين يعيشون الآن؟! إن ما نفكر به مجرد عبث أخرق"[10].

ولعل نظرة منصور عبد السلام إلى الحضارات القديمة تعود في أصولها إلى النظرية الماركسية والفكر الإيديولوجي الاشتراكي الذي تتوزع بعض تيماته في أعمال " منيف"، والذي ينهض على مبدأ تكافؤ الفرص داخل المجتمع، فذلك السبيل الوحيد الذي يحمي الشعوب من الوقوع في فخ العوز والفقر والجوع وينقذها من براثن الاستغلال ويخلصها من مستنقع الاستعباد، وفي الحياد عن هذا السبيل تضمحل البنى الأخلاقية للشعوب ويختل الميزان الاجتماعي، وتتراجع السيادة الوطنية للأمم، وتضيع القيم العامة ويشيع الخواء الروحي، وتنتشر ثقافة القنوع والخنوع " وتهدم حقوق الإنسان، وتصبح المرأة سلعة، وتدمر القيم والتراث الحضاري للشعوب، ويزداد التطرف في المجتمعات وتهدد الهوية الثقافية"[11].

ومن مظاهر السلطة البطركية في مجتمع "طيبة" في الرواية أن تكتم الحريات ويمنع الناس من الكلام وإبداء الرأي والتعبير عن أنفسهم ومشاكلهم، فالأب المقدس لا يحتمل نقدا ولا معارضة، فكيف لإنسان يعيش تحت سلطة قاهرة كهذه ونسميه متحضر، كيف له أن يكون ذا قيمة وذا وجود وهو يخضع لهذه السيطرة الغاشمة، فكما لا يمكن للإنسان أن يقفز وهو ساقط، كذلك لا يمكن له أن يتطور وهو مكبل الفكر والروح والجسد، و الشيء الأكيد أن التغيير إن لم ينبع من قلب الإنسان فيستحيل أن يكون في أي فضاء آخر.

1. 2 ـ في رواية قصة حب مجوسية :

أما في " قصة حب مجوسية" يطرح منيف العلاقة بين حضارة الشرق وحضارة الغرب من خلال محاولته "إبراز ثقل الموروثات الاجتماعية واختلاف

العادات وبالتالي النظرة والسلوك تجاه قضية الحب"[12] كما عبّر عنها "عبد الرحمن منيف" في لقاء مع النافد الصحفي "مصطفى المدايني"، وذلك من خلال بطل القصة الشاب العربي الذي ذهب للدراسة في بلد غربي، ويعيش الحياة الغربية بالطول والعرض ويقيم عدة علاقات غرامية مع نساء مختلفات وكأنه "دون جوان" فمن " ميرا " إلى " باولا" إلى " رادميلا"، "وكأنه يفتش في كل واحدة منهن أو فيهن جميعا عن حلمه الخاص، حلمه المطلق الذي لا يستطيع أن يحدده أو أن يقبض عليه، كأنه يبحث عن حلمه المضيع "[13]، إلى أن يلتقي أثناء قيامه برحلة سياحية جبلية رفقة أصدقائه بـ "ليليان" المرأة المتزوجة فينجرف إلى حبها، ويرى فيها أشياء طالما أضناه البحث عنها ولم يعثر عليها، لكنه يُبقي هذا الحب المختلف في حدود العاطفة الطاهرة العفيفة البريئة، ولا يتدنى به إلى درك التلوث والابتذال؛ فمعها وحدها يصطدم بما تربى عليه في الشرق واستقر في وعيه حول المرأة وعلاقته بها، وبعد انتهاء الرحلة السياحية تختفي "ليليان" ويحاول أن يبحث عنها في المدينة الكبيرة الصاخبة لكن دون جدوى، وعندما يقرر العودة إلى بلاده بعد إنهاء دراسته يفاجأ بها في محطة القطار تهم بالسفر ولكن في قطار غير قطاره ويسير كل منهما في طريقه وقد برّح به الشوق واعتصرت الحصرة قلبه.

لقد جرد " منيف" هذه الرواية من الطروحات السياسية والإيديولوجية "وجعلها أقرب ما تكون إلى رواية مترجمة ؛لأن البطل يفتقر إلى أي ملمح من الملامح الشرقية سواء في سلوكه أم في علاقاته وقيمه وأفكاره"[14]، إذ أراد منيف أن يقدم صورة عن ذوبان الأنا في الآخر إلى حد التماهي، وفقدانه لكل المعاني التي تشدّه إلى جذوره العميقة، ثم الاستفاقة المفاجئة والارتداد نحو الأصول عندما لا يستطيع الاندماج الفعلي مع الآخر المراوغ الرافض له حيث يقول البطل: " أيتها المدينة، أنت تلدين البشر ثم تقتلينهم، تخلقين الحب حتى إذا تكون وكبر وأصبح جنينا تخنقينه، تمزقينه دون رحمة،. ...أيتها المدينة، أنت تعزفين الموسيقى، تطبعين الكتب، حتى إذا تشبع الإنسان بحضارتك وأراد أن يفعل مثلما تقول الكتب أو

مثلما يرى على الشاشة سخرت، هزأت بهذه المخلوقات التي تشتهي أن تردد وراءك بعض الأمور التي علمتها"[15]، لقد استحالت "ليليان" إلى دال مكتنز بالدلالة تنفتح على دلالات لا حصر لها، فقد غدت رمزا للفردوس المفقود الحلم المطارد الذي يتكسر على أبواب المدن والحضارات، إنها إذن الحلم المنقذ والمخلص، الحلم المنتظر والمأمول، إنها رمز للطهر في مدن العهر حيث تنبت الغواية في القلب وتتداعى الشهوات تحاصر الروح، إنها رمز لوخز الضمير ولحظة الاستفاقة بعد الانغماس الكلي في عالم المادة والرذيلة الذي تعج به الحضارة الغربية المزيفة.

ولعل ما يبرر مشروعية هذا التأويل إن البطل لا يبغي من ليليان الوصال الجسدي بقدر ما يرنو إلى الوصال الروحي الذي يفتقده كافتقاده لدفء الشرق وقيم الحضارة العربية الشرقية الصافية، فهو التقى بليليان في الجبل الذي يرمز إلى الشرق في علوّه وهدوئه واحتفاظه بطبيعته التي لم تدنّسها المدنية ولم تتمكن من تشويه جمالها الفطري، وضاعت منه (ليليان) في المدينة الصاخبة التي ترمز للغرب وحضارته التي تراهن على ابتلاع القيم وتدمير المعتقدات، ففي هذا البلد الغريب وفي لحظة تفلّتت من أواصر المكان والزمان سقطت مرآة الحضارة من يد البطل وانكسرت وفي حطامها شاهد ليليان، وجهه الضائع، ومنذ ذلك الحين تخلى عن جميع عشيقاته وبقي وفيا لامرأة من دخان لم يكلمها إلا كلاما عاديا عابرا، لكنها بالرغم من ذلك انغرست في قلبه ومخيّلته ورفضت الرحيل " السنوات تتتابع، سنة وراء أخرى، وكل شيء يتغير، الأماكن والبشر الأشجار...وحتى محطات القطارات، وشيء واحد شامخ لا يقهر ولا يتغيّر...ليليان"[16].

لقد آل عبد الرحمن منيف على نفسه البحث في أغوار الذات العربية الشرقية المعذبة، يحلل تقلباتها، ويرصد ما يعتمل بداخلها من هزات وجدانية عنيفة، هذه الذات التي وجدت نفسها بين مطرقة الشرق وما تمثله من موروث ثقافي عربي، وقيم وعادات شرقية أصيلة توطدت في النفس، وبين سندان الحضارة الغربية المتنصلة

من أي تراث روحي وقيم إنسانية.فعندما " كانت تسنح فرص لمد جسور التواصل مع ليليان ويعجز عن اهتبالها، كان يحس بالجبن والضعف فيبكي"[17].

الرجل الغربي من ويبرز لنا الصراع الحضاري في هذه الرواية بطريقة أكثر حدّة من خلال الرّهان والتحدّي بين الأنا والآخر انطلاقا من مفهوم الرجولة هذا المصطلح الذي له نكهة شرقية مميّزة، ويتجلّى ذلك من خلال الصراع الدائر بين بطل الرواية الشرقي و"إيفيان" أجل الفوز بالأنثى "رادميلا".

لقد شكّل الرهان والتحدّي الدافع الأساسي الذي " كان يوجّه سلوك بطل الرواية ويحدّد شكل تجاربه، والرّهان والتحدّي هنا يستهدف إثبات الرجولة والإرادة من خلال القدرة على امتلاك الأنثى وأسرها في شرنقة الذات"[18]، فالبطل لم يكن يحب هذه المرأة ولم يتعلق بها أبدا ولكنه كان حريصا على امتلاكها والاحتفاظ بها، ولذلك يصاب بإحباط شديد عندما يتغلب عليه " إيفيان "ويريد الزواج منها، يقول البطل "تحطم غروري أمام غرور إيفيان، أمام ثقته...تراجعت كثيرا في الوقت الذي تقدم هو بخطوات متّزنة هادئة"[19]، حيث واجه "إيفيان" بطل الرواية متحديا ساخرا مما يجعله يشك في قدراته ورجولته، يقول بطل الرواية: " وجدته يبادرني بطريقة أقرب إلى التّحدي، وبنفس النبرة التي استعملها عندما تحداني أول مرة، في الليلة العجيبة، قال بالتأكيد خسرت الرهان. ..إذا أحببت أن نتراهن مرة أخرى وعلى أي شيء فأنا مستعد"[20]، إذن إنه صراع وجود وليس صراع حب، لذلك كان للهزيمة طعم مضاعف المرارة، أقسى من أن يحتمل، وكأنه نوع من الإقصاء، نوع من الخصي والتفريط في الرجولة، نوع من إهدار الشرف.

1. 3 ـ في رواية شرق المتوسط:

تقدم لنا رواية " شرق المتوسط " قضية " رجب اسماعيل " رمز للمناضل السياسي الذي يخرج من السجن بعد أربع سنوات من التعذيب والتنكيل، وقد تبرأ من انتمائه السياسي وكأنه يكون أحلامه التي ضحى لأجلها بالكثير، وتحاول هذه

الرواية أن تقدم صورة عن " العصر العربي الذي انتهك شرعة حقوق الإنسان جملة وتفصيلا، مادة، مادة، بندا، بندا، حتى مات في النفوس والأذهان، لا الحق فحسب، بل أيضا مبدؤه وفكرته"[21]، وفي المقابل يتبدى الغرب بوصفه الملجأ للفارين من جحيم السجون الشرقية وإرهابها، وكان رجب اسماعيل أحدهم الذي سافر إلى فرنسا طلبا للعلاج من الأمراض التي أصابته جراء التعذيب، وهناك عاين الفرق بين الحضارتين، فانبهر بالغرب الذي يكرس مبدأ حرية الفكر وحقوق الإنسان، وحرية التجمع، وقد فوجئ بأن في البلاد الأوربية الأحزاب لها مراكز مكتوب عليها الأسماء بوضوح يدخلها الناس دون خوف يدخلون دون أن ينظروا وراءهم"[22]. ويجتمعون في هذه المراكز على مرأى من السلطات، يناقشون المواضيع المهمة دون أن يخشوا عيون الرقابة كما هو الحال في شرق المتوسط.

ويمعن "رجب" في المقارنة التي ترجح فيها كفة الغرب دون منافس إذ يرى أن الناس " يتكلمون في الشارع، وبصوت عال، أما الجرائد فإنها تنشر كل شيء، وعلى ضفاف السين آلاف الكتب، ملايين الكتب"[23]. إذ أصبح الكتاب في البلاد العربية جريمة يحاسب عليها القانون في إشارة واضحة للمثقف المضطهد في البلاد العربية، فهو يقول " آه يا باريس، لو جئتم بكتبكم إلى شاطئ المتوسط الشرقي لقضيتم حياتكم كلها في السجون. .. واحذروا أكثر أن تفكروا بالأحزاب لأن أي كلمة تجد من يلتقطها ويجعلها مؤامرة وتخريبا، وتدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل والتيفوس وتموتون"[24]

رواية "شرق المتوسط" تحاول استكناه واقع مرير يتلفع بألوان القمع والاضطهاد والذل والإهانة التي تحيق بكيان فرد أو مجموعة من الأفراد في المجتمع العربي نتيجة تعسف النظام المستبد وذلك ما يؤكده "منيف"، حين يتحدث عن " المواطن الحر أو المجتمع الحر القادر على المواجهة، وعلى شق طريقه نحو المستقبل، خلافا للمجتمع المكبل الذي سيظل هشا قابلا للتداعي ثم الانكسار إزاء أول صدمة إذ كيف يمكن لشعب أن يتقدم ما دام مقيدا ومحروما من حقوقه"[25].

يقرر"رجب" السفر إلى أوروبا إلى " جنيف " و "الصليب الأحمر" من أجل استشعار الرأي العام، فهو يريد أن يقدم مذكرة أو عريضة عن العذاب والطريقة اللاإنسانية التي يعامل بها السياسيون في الوطن يريد أن يكون شاهد عيان على فظاعة الجرائم التي تقترف في حقهم بصفته واحدا من الذين عاشوا جحيم السجون العربية، علّ وعسى أن يزعزع الرأي العام العالمي لتضع حدا للامتهان والازدراء والقهر والموت التي يعاني منها هؤلاء المستضعفين.

والشيء الذي يسترعي الانتباه في هذه الرواية: " أن كره الروائي للسلطة المستبدة في الشرق يؤدي إلى نوع من الدمج ما بين السلطة والشعب، فيصبح نوعا من الاستخفاف بالشعب، وربما يصبح نوعا من التمجيد المجاني للغرب"[26]. حيث يقول " رجب " في رسالة بعث بها إلى أخته " أنيسة ": " يشغلني الآن يا أنيسة أمران: الأول أن أكتب والثاني أن أسافر إلى جنيف"[27].، كما يرى أن الحرية تقيم في أرض غير عربية تتواجد خلف الضفة الشرقية يقول: " قالوا: إن الحرية في أرض أخرى، أبعد من اليونان، يمكن أن يعيش فيها الإنسان أيامه دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين وضربات أحذيتهم، سأرحل إلى تلك البلاد"[28]، لقد بلغ "رجب" مرتبة اليقين والإيمان المطلق في أن الإنسان في " شرق المتوسط " ليس له الحق في أن يملك شيء لا الوطن ولا الأرض ولا الجسد، وحتى أنفاسه تعد عليه لحظة بلحظة، ليتحول الموطن إلى منفى وسجن كبير يطبق على الروح حد الاختناق وفي ابتعاده عن هذا الوطن يحصل على الحرية وأولها حرية الذات والجسد حيث تبدأ رئتاه في التقاط أكسجين الحياة، يقول: " أنا الآن أملك جسدي، أستطيع أن ألقيه في البحر، لا أحد له سلطان عليه مثلي، كانوا يستطيعون ذلك، فعلوا أشياء كثيرة، لكنهم الآن لا يستطيعون، أصبحت بعيدا في كل ثانية أبتعد، أنجو"[29]. إنه إذن الفرار من جحيم الشرق إلى جنة الغرب، فالشرق والحرية خطان متوازيان، وضدان لا يجتمعان، " لقد كان " رجب " في هذه الرواية منبهرا بحضارة الغرب وعدالتها وشديد النفور من حضارة الشرق المترهلة، ورغم ذلك يبقى الشرق شرقا بكل ما

يميزه من طابع وثقافة خاصة به، ويبقى الغرب غربا كنموذج مغاير لتركيبة وطبيعة الإنسان الشرقي لذلك يقرر العودة إلى الشرق ويواصل النضال إلى آخر رمق في حياته.

2 ـ علاقة العداء والنفور المتبادل :

إن النماذج الروائية المقدمة سالفا تمجد الغرب وتشيد به على حساب الشرق، أما الروايات اللاحقة بدأً بسباق المسافات الطويلة ومرورا بـ " مدن الملح " ووصولا إلى ثلاثية " أرض السواد " فهي تقدم صورة مختلفة تماما، حيث يسعى منيف لإبراز علاقة العداء والنفور المتبادل بين الشرق والغرب، و سنحاول الكشف عن أبعاد هذه العلاقة فيما يلي.

2ـ 1 ـ في رواية سباق المسافات الطويلة:

يطالعنا الغرب في هذه الرواية بوجهه القبيح مكشرا عن أنيابه مبينا عن نياته السيئة تجاه الشرق، فقد بدا الغرب أكثر غطرسة واستعلاء واحتقارا للشرق، حيث تتكئ هذه الرواية على التاريخ الحديث في الكشف عن هوية الأزمة الحضارية في شكلها الجديد التي تلوح لنا بوضوح في نسيج السياسة الاستعمارية الجديدة في الشرق الأوسط وبالضبط في " إيران "، وتضارب مصالح القوى الكبرى التي كانت تسعى إلى الهيمنة على مصادر الطاقة النفطية في الشرق، وكانت إيران تمور بالصراعات الأجنبية المتكالبة على ثرواتها مثل بريطانيا وأمريكا وكذلك روسيا التي يشير إليها " منيف " بقوله " الآخرين ".

لقد عمد "منيف" في هذه الرواية إلى إقامة مقابلة بين الشرق والغرب ويتراءى ذك من خلال التفاصيل الكثيرة التي تتصل بالوصف العام للشرق " وعلاقاته الاجتماعية ومزاج سكانه وطبائعهم وأخلاقهم وقيمهم وأسواقهم ومحلاتهم سواء في المدينة أو في الريف، كما يتراءى من خلال الشخصيات الروائية المقدّمة"[30] كشخصية "بيتر ماكدونالد" العميل البريطاني، و "شيرين اللعوب" و"عباس الدايوث" وغيرهم. إذ يقدم لنا " عبد الرحمان منيف " صورة عن الشرق

من خلال عيني " بيتر " رجل المخابرات العتيد الذي يسعى للحفاظ على مصالح بريطانيا العظمى في الشرق.

ينفتح الغرب (بريطانيا) على الشرق بمركب سيطرة واستعلاء واستغلال يقول " بيتر": " هذه البقعة من الأرض لنا، ولا يمكن لأي قوة في العالم أن تنتزعها منا "[31]، يقيم " بيتر " علاقات مع عدد من الخونة والعملاء الذين يبغي من ورائهم الوصول إلى غايته، كما ينشأ العديد من العلاقات مع النساء، ولكنه يعتبر علاقته بـ "شيرين" بمثابة الانتصار على الشرقيين، وإيذانا بنجاح مخططه لإخضاع الشرق لسيطرته يقول: " ما دامت ملكة الشرق هذه تركع عند قدمي، فإن الشرق كله سيتعلم الركوع بسرعة، وسوف يركع حتى هذا العجوز المعروق الوجه سوف يفعل ذلك"[32]. فيقوم " بيتر" بكتابة مذكراته، نتعرف من خلالها إلى كل شيء عن الشرق، فإذ به يعمد إلى تسجيل انطباعاته السلبية عن سكان الشرق وطباعهم وعاداتهم وطرق معيشتهم وانغماسهم في الأوهام، يقول: " الناس في القرية متشابهون: بالوجوه، بالملابس، بطريقة الجلوس في مقاهي الشاطئ البسيطة القذرة، بالأصوات العالية، حتى الأطفال وأن أتمعن وأراقبهم وهم يتقافزون مثل العصافير، أو القطط ويتدافعون ليرموا بعضهم، أو أنفسهم في الماء، بدوا لي متماثلين إلى درجة لا يمكن أن أميز واحدا عن آخر وبدت لي أجسادهم الصغيرة المحروقة، ضامرة، بارزة الأضلاع، وأقرب إلى جذوع الأشجار، بالنتوءات التي تظهر بين الأكتاف، وعند المفاصل، أما عيونهم فإن حمرتها تختلط مع صفرة، وتؤكد دون أي خطأ، أنهم يشكون من أمراض الكبد والتراخوما في وقت واحد"[33].

لقد حضر " بيتر" إلى الشرق وهو يحمل في جرابه الكثير من السموم يريد أن ينفثها في المجتمع الشرقي، لقد جاء وهو مزود بخزان حقد وغل وكره لا ينفذ اتجاه الشرق وكل ما يمت له بصلة، فهو على يقين أن البدائية أهم ميزة عند الشرقيين: " البدائية في كل شيء. .. إن حالة من التخلف والوحشية تبرز في جميع مناحي الحياة "[34]، وراح يؤكد على هذه الميزة التي تتجلى أهم مظاهرها في أن "

الشرق والنظافة في حالة عداء مستمر"[35]، وهم يعيشون في حالة من الهمجية والفوضى العارمة إذ " تنعدم لديهم القدرة على التخطيط والتواصل"[36] "، إذ يرى أنهم: " أقرب إلى الحيوانات المتوحشة"[37].

ما أقساها من أحكام تطلق دون رحمة من بنادق الاستشراق كرصاصات محمومة لا تبصر، موجهة إلى صدر الشرق المفتوح، لقد أمعن في تبخيس واحتقار الشرقيين، حتى يقرر أنهم ولدوا للموت الذي يلون كل شيء في حياتهم، نعم إن " بيتر ماكدونالد " " مسلح بثقافة استشراقية – استعمارية، وبأحكام مسبقة يسقطها على أي ظاهرة يريد وساعة يشاء"[38].

لقد استطاع أهل الشرق بحدسهم الفطري أن يتلمسوا الروح العدائية ونظرة الاستصغار ودرجة الحقد والاحتقان الذي يوغر صدور الغربيين اتجاههم، فرفضوهم وبادلوهم كرها بكره، فكانت علاقتهم يطغى عليها الرفض المتبادل، لقد عبر " بيتر " عن هذه العلاقة وشعر بأن نظرات الناس له تحمل الكثير من الدهشة والاستغراب، مما جعله يشعر بالضيق حيث يقول: " إنهم ينظرون إلي كأني دمية لا يملون أبدا من النظر إلي، وكأنهم لا يصدقون وجودي أو يعتبرونه شيئا مختلف عن وجودهم"[39]، ويقول أيضا :"كانوا يبتسمون في وجهي ينظرون إلي بإمعان، لكن كنت ألمس وراء الابتسامات والنظرات نوعا من الحذر، وربما الكراهية"[40]. نعم لقد كان لدى الناس مستوى من الوعي خولهم لفهم ومعرفة نوايا " بيتر " المبيّتة ضدهم والهدف الذي دفعه إلى المجيء للشرق، لذلك ازدادوا حقدا عليه وبغضا له.

2 ـ 2. في رواية " مدن الملح" :

يدور الصراع في رواية " مدن الملح " ذات النفس الملحمي بأجزائها الخمسة (التيه، الأخدود، تقاسيم الليل والنهار، المنبت، بادية الظلمات) حول حدث مهم في تاريخ الصحراء العربية سعى منيف لمعالجته روائيا وهو اكتشاف النفط وما خلفه من آثار غيرت معالم المجتمع العربي الصحراوي بعد أن زحفت إليه

الحضارة الغربية مما أدى إلى وقوع صدام حاد وعنيف بين الحضارة العربية ومعطياتها والحضارة الغربية وإمكاناتها التي تختلف عنها جملة وتفصيلا وبكل المقاييس.

وتصور مدن الملح النموذج الحضاري الأمريكي الذي فرض نفسه على عرب الصحراء البدو بوسائله المتعددة وتقنياته الحديثة، حيث وجد العربي البسيط نفسه فجأة حائرا ضائعا " بين رموز وأشكال الحضارة الزاحفة، وبين ذلك الإنسان الذي انسلخ فجأة وبدون إنذار مسبق من صحرائه، يبدو لنا بعد حين وكأنه تكوين هجين، فهو الابن الشرعي للصحراء أصبح وبطرفة عين مشغوفا إلى درجة الضياع بتلك المرموزات التي تقدمها الحضارة الوافدة من جوفها"[41] لاسيما وأن الإنسان الصحراوي لا يمتلك من الإمكانات ما يؤهله لمواجهة ذلك الزحف الرهيب والاجتياح الكاسح للآخر، فكان طبيعيا أن ترجح كفة الصراع لصالح النموذج الغربي باعتباره الطرف الأقوى في المعادلة الغير متكافئة الأطراف.

بقدوم الأمريكان إلى " وادي العيون " حملوا معهم صدمة عنيفة زلزلت كيان المجتمع البدوي البسيط، فبدأوا بترحيل السكان وتشريدهم، وطردهم عن موطنهم الذي لا يعرفون بديلا عنه بعد مجيء الحملة وانطلاقها في البحث عن الذهب الأسود، وكان هذا الترحيل القسري مفجعا، مؤلما، أقسى من أن يتحمله بشر، يقول الكاتب " رحيلهم عن وادي العيون كان قاسيا، عنيفا، مثل لطمة مفاجئة وقد ملأهم هذا الرحيل بشعور قاهر منذ الليلة الأولى. .. إنهم وحيدون لا يستطيعون احتمال الحياة الجديدة"[42] وبالقسوة ذاتها والوجع نفسه أجبر سكان " حران " على الرحيل عن بلدتهم الصغيرة، لما وصل إليها الأمركان وجعلوها ميناءا لشركتهم، فاكتظ ميناؤها بالبواخر التي تحمل غرباء من أعراق مختلفة وجنسيات متعددة لتغزو الصحراء باسم العمل. .. بينما حرم السكان الأصليين من حق العمل في هذه المشاريع بل وجّهوهم لأعمال السخرة كالعبيد.

وبهذه الطريقة زرع الأمريكان بذور الحقد والكره في نفوس سكان الصحراء العرب، فامتلأت حفيظتهم حنقا وحقدا عليهم، فتحولوا إلى أعداء لأهل

الوادي، فأصبحوا يصفونهم بالملاعين، الجن، السحرة، الشياطين، النحس. .. إلخ من الأوصاف، ومما عزز مكانة أمريكا ودعم نفوذها، وقوى شوكتها هو العنصر المحلي المتواطئ الممثل في شخص السلطة والأمر حيث قال لهم: " يا جماعة الخير، ارحلوا برضاكم مثل ما رحل الجماعة قبلكم أحسن ما ترحلكم العصا، كل واحد أخذ حقه المقسوم والأمير يقول: اللي يريد ديرته وعشيرته فألف سلامة، واللي يريد مكان فالحكومة حضرت المكان"[43]، وصار حال العمال العرب في الشركة الأمريكية إلى أسوء حال، يعملون تحت سياط الشمس الحارقة دون توقف حتى ينال التعب من أجسادهم النحيلة، فيتدافعون إلى خيامهم بعد المغيب ليريحوا هذا الجسد المنهك دون أن تعرف الراحة طريقا لقلوبهم وأرواحهم المعذبة، بينما الأمريكان يقيمون سهرات المجون والعربدة يصخبون ويغنون حتى بزوغ الشمس، يقول أحد العمال العرب معبرا عن المفارقة الواضحة بين الحياة التي يحيونها وحياة الغرباء فوق أرض واحدة كان من المفروض أن تكون لهم الراحة والأمان أكثر من غيرهم فيقول: " الأمريكان أولاد حرام، ما من وراهم إلا التعب ووجع الراس، هم باللحم وجماعتنا على العظام ما تحصل"[44]. ويقول آخر: " الله يلعن الأمريكان وأبو الأمريكان جاءوا وجاء معهم كل البلاء"[45] "ويقول " عبد الله الزامل " أحد أبطال الرواية الذي ما عاد يحتمل المعاملة اللاإنسانية والإهانات والشتم وقسوة ظروف العمل فيقول: " الأمريكان مالهم رب، الأمريكان مالهم صاحب، ما يعرفون إلا: شغل شغل، عرب كسلان، عرب كذاب، عرب ما يفهم" [46]، إن التعالي الأمريكي على العرب من عمال وسكان، وكذا احتقارهم لهم وسخريتهم من عاداتهم وتقاليدهم، واستخفافهم، بطباعهم وقيمهم، عفّروا كرامتهم بالتراب، دمّروا الإنسان والمكان والحيوان، باختصار قتلوا فيهم الحياة.

لقد صدع العرب للحياة التي أجبروا عليها ورضوا بالواقع المهين والحياة البئيسة رغم أنوفهم، ونزحوا إلى "حران" للعمل في شركات النفط. فمنذ البداية أقدم الأمريكان على تقسيم المدينة إلى قسمين، "حران العرب " و "حران الأمريكان"

فأضافوا للجدار النفسي جدارا إسمنتي حتى يتفاقم الحقد، وتتأجج ثورة الكره في أعماق العرب، وكي يصنعوا بينهم وبين العرب مسافة لا يجب تخطيها في كل مناحي الحياة. ف" حران الأمريكان " بنيت بنمط معماري حضاري غربي متناهية في الدقة والتنظيم " شوارعها متصلة عريضة وأخرى ضيقة، ولكنها باستقامة جادة"[47] لا يمكن أن نقف فيها على عمل ارتجالي سريع وقد قاموا ببنائها باستخدام آلات جهنمية نقلها الأمريكيون إلى الصحراء، إن التكنولوجيا التي يملكونها تساعدهم على تطويع المكان والسيطرة عليه، لقد بنوها تبعا لوظائف ومهمات من سيسكنها، "كل شيء ينفذ تبعا لدراسة مسبقة، وبناؤها تم منظما بشكل دقيق بينهم في تحقيق ذاك الهدف ويؤمن الراحة لمن يسكنها في آن"[48].أما " حران العرب " فكانت على النقيض من ذلك، حيث أن التحول الذي حدث فيها، وعلى عجالة لم تخضع للتنظيم والسيطرة، بل تمتاز بعشوائية البناء والتصميم فهي ليست لها القدرة على استيعاب هول مفاجئة التغيير والتحديث، حران العرب " مدينة بنيت على عجل لا يمكن لنا إطلاقا أن نتخيل الشكل الذي اتخذته"[49] فالوصف الذي قدمه لها " منيف " يجعلنا ندرك حجم المأساة والمعاناة التي وقع فيها العرب وتعمّق المفارقة الحس المأساوي الذي يطبعها يقول: " البيوت الطينية سدت طرقاتها أو جعلتها ملتوية شديدة التعرج. .. انتشرت بيوتها في أماكن عديدة مثل الرقع في ثوب كبير قديم"[50]، إضافة إلى ذلك فحياة العرب فيها كانت بمثابة من يقيم في الجحيم ناظرا إلى الجنة ونعيمها أمامه، فهذا مما عمق الهوة بين العرب والغرب على المستوى الحضاري ويحسر النقاب عن الوجه القبيح للغرب، ويشير بشكل صريح إلى العلاقة الغير متكافئة بينهما، فقد شعر العرب بالغربة على أرضهم بينما استطاع الأمريكان أن يتكيفوا مع المكان القاسي العنيد وطوّعوه لإرادتهم بإمكانياتهم الحضارية المتطورة وهذا يدل على جدية نواياهم وخطورة طموحهم الذي يحيق بالوجود العربي فوق أرضه.

كما تعكس الرواية الفارق الكبير في المستوى العلمي والثقافي بين العرب والأمريكان (الغرب)، فالعرب لازالوا يحيون بدائية فطرية مفرطة بعيدين كل البعد عن مظاهر الحضارة والمدينة عكس الغرب الذين وصلوا إلى مستوى عال جدا من العلم والمعرفة وتمكنوا بفضلهما من غزو العرب في عقر دارهم.

3 ـ علاقة القبول المجزوء:

ـ في رواية " أرض السواد " :

تجسد رواية " أرض السواد " آخر محطات " منيف " الروائية الصراع الحضاري أكثر ضراوة واحتداما وعلى جميع المستويات : التاريخية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية. .. إلخ، ولكن الصراع اتخذ هذه المرة طابع الندّية والتحدي متمثلا في شخصية المصلح " داود باشا " الذي يطمح لبناء عراق قوي ومتماسك وبين القنصل الإنجليزي " كلوديس جيمس ريتش " الذي كان يطمح للسيطرة على الشرق، وكان "ريتش" يتقن اللغات العربية والتركية والفارسية، وذا معرفة واسعة بشؤون المنطقة، وكانت المهمة الصعبة المنوطة به تتمثل في "مد النفوذ البريطاني ومحاربة التدخل الفرنسي. .. وكان مشبعا بأفكار " جون مالكولم " السياسية، فكل منهما يؤمن بأن الأتراك والشرقيين حريصون كل الحرص على التقاليد الشرقية وعلى أسباب الأبهة والعظمة "[51] لذلك يسهل عليه التوغل إلى أقاصي المجتمع العراقي بعدما تمكن من مفاتيح العقلية الشرقية العربية، فكان الحكام والسلاطين عجينة طيعة في يده يتصرّف فيها كما يشاء، ما عدا " داود باشا " الذي رفض الانصياع لأوامره، وكان له ندا شرسا وعنيفا، أطاح بمعظم مخططاته للنيل من الشرق ولكنه لم يعدم وسيلة في الحصول على مآربه، فانطلق ينهب من خيراته، واستنزاف موروثه الحضاري والثقافي.

يمتلك الشرق العربي كنوزا ثمينة تشهد على عظمة تاريخه وتحكي عن مراحل تطوره وتقدمه الفريد عبر آلاف السنين، وقد سعى الغرب جاهدا إلى سلب المحتويات الفكرية والقيم الخاصة بالشرق من خلال محاولة مصادرة القطع الأثرية

ونقلها إلى متاحف الغرب وكذا سرقة ذاكرة العرب المتمثل في المخطوطات النادرة، راميا من خلال هذه الجريمة التاريخية إلى طمس هويته الثقافية من أجل فرض الهيمنة على ثرواته الطبيعية وبعدها استلابه حضاريا. لأن الشعب الذي لا يملك تاريخا لا يملك جذورا يسهل السيطرة عليه واقتياده ما تقاد السائمة البلهاء إلى مرتعها، فقد طلب " ريتش" من وزارة الخارجية في لندن ومن السفارة البريطانية في " اسطنبول" أن " يعطي موضوع الآثار أهمية خاصة، وأن ترسل البعثات للبحث والتنقيب"[52]، فكثيرا ما كان "ريتش" يشك في قدرة الشرق فعلا على بناء وامتلاك مثل هاته الحضارات العظيمة، لأنه يرى أن البشر في هذه البقعة "لا يبدون أنهم قابلون لأي نوع من التعليم، يولدون ويموتون بنفس المعارف والقناعات وغير مستعدين لتغيير شيء أو إضافة شيء آخر، كما ليس لديهم الرغبة أو ما يطلق عليه في الأماكن الأخرى: الشوق لاكتشاف الجديد، وأيضا هذا أهم الأشياء، أن الناس هنا لا يملكون حسا بالزمن"[53] فهو يتساءل إن كان هؤلاء الناس سليلو أولئك العظماء، إنها إذن نظرة الاحتقار والتبخيس للإنسان الشرقي ما تزال تجاهد للانتصار على كل ما عداها من نظرات وأفكار تتعلق بالكيان العربي، حتى وإن أثبت الواقع عكس ذلك.

استولى" ريتش " إلى على الآثار والمخطوطات التي تتناول تاريخ الميلاد " واشترى مكتبة كاملة من المخطوطات من ورثة أحد الباشوات السابقين"[54] وحمل ما وصلت إليه يداه وشحنها على متن سفينة إلى بريطانيا قبل رحيله عن بغداد. كما أن "ماري" زوجة "ريتش" ترى أنه من العار أن تبقى مثل هذه الكنوز في يد أمة تجهل قيمتها حيث تقول لزوجها: " أتر مثل هذا لا يمكن أن يترك في هذا المكان الموحش، وأن يكون تحت تصرف شعب متخلف لا يفهم ولا يقدر ما لديه، وقد يسيء إلى هذا الأثر دون أن يحس أنه يرتكب حماقة أو جريمة"[55].

ليس من نافل القول أن هذه الثروة العظيمة ملك للعراق ومن ورائه الأمة العربية بأكملها، وأن في الاستيلاء عليها ونهبها، قتل لهوية الأمة العربية واقتلاع لها

من جذورها العميقة، فهي وقف لا يباع ولا يشترى ولا يقدر بثمن ولا يحق لأي كائن أن يتصرف فيها، " إنها جريمة تمارسها دولة عظمى في حق دولة ضعيفة. .. ومن اللافت للنظر، بالإضافة إلى ذلك، " تقدير ريتش وزوجته لهذه الكنوز وإعجابهما بها إلى جانب احتقارهما لأصحابها، وللحضارة التي أنتجتها"[56]، إن الموقف الإزدواجي "للغرب" اتجاه "الشرق" تؤكد على وجود علاقة الرفض المتوارثة في اللاوعي الجمعي للغرب عن الشرق وفي الوقت ذاته تشير إلى علاقة قبول جزئي لا يمكن إنكاره.

لقد تجاوز " الغرب " الخط الأحمر في احتقارهم واستهزاهم بالشرق إلى درجة التعدي على موروثه الثقافي المتمثل في العادات والتقاليد الشرقية الأصيلة التي تشكل جوهر وروح الحضارة الشرقية ومفخرة العرب، والدعم والسند للعربي لإثبات تفوقه الحضاري في الجانب المعنوي (الروحي) الذي يفتقده الغرب أمام الحضارة المادية الغربية الباردة والتي تفتقر إلى دفء العاطفة الروحية.

عد " ريتش " الكرم والشهامة وحسن المعاملة نوع من عدم الثقة في النفس وعلامة نقص يعاني منها الشرقي فيقول بكل تبجح: " وبعض الناس يهمهم أكثر من المال – الكلام الدافئ الذي تقوله لهم، وطريقة القول ثم كيف تتعامل معهم، خاصة أمام أنصارهم، لأن الكلام مجرد الكلام، يعني الكثير لهؤلاء الشرقيين ربما لعدم ثقتهم بأنفسهم، ولأنهم بحاجة دائما إلى اعتراف الآخر وهذا يعني أن تحفظ بعض أشعارهم وأمثالهم، حتى لو استعملتها بشكل خاطئ. .."[57]، بل حتى الطعام الشرقي يمثل في نظرهم حالة من الموت السريع، حتى الحيوانات لا تستطيع تحمله حيث يصف الدكتور " رايت " الطعام العراقي بقوله: " لو قدر لأي خنزير أن يتناول هذه المقادير من الأطعمة، ومن هذا النوع لقضي قبل طلوع الفجر"[58]، أما "ريتش" فهو يرى أن الطعام الشرقي الذي تكتسحه التوابل وكثرة محتوياته نوع من " الموت الذي لا يخلو من مازوشية، وهو ما يفعله الشرقيون بإسراف وكأنهم يتلذذون بهذا النوع من الموت"[59].

لقد عمد منيف في هذه الرواية إلى الدفاع بشكل غير مباشر عن التراث الأصيل والإبداع الحضاري للمجتمع الشرقي، للحفاظ على الهوية الشرقية العربية الإسلامية، وهو ليس بحاجة إلى التعزيز، إلى الاعتراف بالصلاحية من قبل الآخر وهذا ما لم يستسغه الغرب.

الخاتمة : وأخيرا نصل إلى القول أن اللقاء بين الشرق والغرب في روايات عبد الرحمان منيف تجلى في أكثر من صورة وعلى أكثر من صعيد ذلك أنه اكتسح جميع الميادين، الاجتماعية، الثقافية، الاقتصادية، السياسية، الدينية. .. إلخ، حيث يسعى " منيف " إلى محاولة فهم واستيعاب عقلي ووجداني عميق للغرب وعالمهم الذي صار قريبا، ولكن دون التملص من الانتماء إلى الشرق بإيجابياته وسلبياته، بل عبر فهم ضمني للصراع الحضاري بين الشرق والغرب مع دون أدنى شك إلى التفوق الحضاري الغربي.

هوامش:

1. جورج لوكاتش، الرواية كملحمة برجوازية، ترجمة :جورج الطرابيشي، دار الطليعة، بيروت، دط، 1986، ص.19

2 . صالح إبراهيم، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ص .288

3 . عبد الرحمان منيف، الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2005، ص .246

4 . المصدر نفسه، ص.246

5 . المصدر نفسه، ص247.

[6] – المصدر نفسه، ص 247.

7 . المصدر نفسه، ص247.

8 . المصدر نفسه، ص248/ .249

9 . المصدر نفسه، ص .249

10 . المصدر نفسه، ص 189.

11 . نبيل فوزان نوفل : العرب . أمّة للصبح منطلق؟، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د ط، 2011، ص .16

12 . مصطفى المدايني: لقاء مع الأديب عبد الرحمن منيف، مجلة الحياة الثقافية، العدد 7، السنة 5، تونس، جانفي / فيفري، 1980، ص .195

13 . محمد كامل الخطيب: انكسار الأحلام . سيرة روائية . مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1987، ص 73.

14- الرشيد بوالشعير:مساءلة النص الروائي في أعمال عبد الرحمن منيف، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004، ص 48.

15. عبد الرحمن منيف : قصة حب مجوسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1979.ص .91

16 . المصدر نفسه، ص .123

17 . المصدر نفسه، ص.30

18 . الرشيد بوالشعير: مساءلة النص الروائي في أعمال عبد الرحمن منيف، ص49.

19 . المصدر السابق، ص .78

20 . المصدر نفسه، ص.79

21- جورج الطرابيشي: عبد الرحمان منيف والبحث عن زمن الرجولة، قراءة في رواية شرق المتوسط، مجلة دراسات عربية، العدد 6، السنة 11، بيروت، أفريل، 1975، ص .61

22. عبد الرحمان منيف : شرق المتوسط، ص .155

23- المصدر نفسه، ص .160

24. المصدر نفسه، ص .160

25 - عبد الرحمان منيف : الكاتب والمنفى، ص .334

26 . رزان محمود إبراهيم: خطاب النهضة والتقدم، ص .131

27. عبد الرحمان منيف، شرق المتوسط، ص .187

28 - المصدر نفسه، ص .114

29 - المصدر نفسه، ص .119

30 - الرشيد بو الشعير، مساءلة النص الروائي، ص .110

31. عبد الرحمان منيف، سباق المسافات الطولة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1977، ص .51

32- المصدر السابق، ص .77

33- المصدر نفسه، ص .337

34- المصدر نفسه، ص .104

35- المصدر نفسه، ص .137

36– المصدر نفسه، ص 129.

37– المصدر نف[1] – صالح ابراهيم، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمان منيف، ص 283.

38– عبد الرحمان منيف، سباق المسافات الطويلة، ص 122.

39 – المصدر نفسه، ص 242 / 243.

40 – سمير أبو حمدان، النص المرصود دراسات في الرواية، ص 116.

41. نفسه، ص 118.

42 – منيف، التيه، ص 120.

43 – المصدر نفسه، ص 109.

44 – المصدر السابق، ص 208.

45 – التيه، ص 196.

46 – المصدر نفسه، ص 386.

47– المصدر نفسه، ص 203.

48– صالح البراهيم، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمان منيف، ص 66 / 67.

49– المرجع نفسه، ص 69.

50 – منيف، التيه، ص 380.

51– ماهر جرار، عبد الرحمان منيف والعراق – سيرة وذكريات – المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص 141.

52– عبد الرحمان منيف، أرض السواد، ص 21.

53 – عبد الرحمان منيف، أرض السواد، ج1، ص 384.

54 – عبد الرحمان منيف، أرض السواد، ج3، ص 191.

55 – المصدر السابق، ص 89 / 90.

56 – صالح ابراهيم، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمان منيف، ص 290.

57 – عبد الرحمان منيف، أرض السواد، ج2، ص 85.

58 – عبد الرحمان منيف، أرض السواد، ج1، ص 393.

59 – عبد الرحمان منيف، أرض السواد، ج1، ص 394